عوامل سموّ و انحطاط العلوم في الحضارة الاسلاميّة

الدكتور جعفر آقايانى چاوشي
دكتورا في علم المعرفة و تاريخ العلم و عضو الهيئة العلميّة بجامعة شريف الصناعية
تعريب: دوّن الدكتور جعفر آقايانى چاوشي هذه المقالة بالفارسيّة و عرّبها الدكتور قيس آل‌قيس.

المقـدّمـة

من كان ذابيّنة في العلوم الإسلاميّة يعرف أنّ القرن الرابع الهجريّ كان سارية بيرق العلوم و الحضارة في كافة انحاء المعمورة، و في هذا العصر الذهبيّ وَضِعَتْ أُسُس و قواعد العلوم الّتي تُسَمَّىٰ اليوم بالجبر و المثلثات و الهندسة العمليّة و الكيمياء و غيرها. و بناءً علىٰ هذا تكون كافة العلوم الحديثة مَدِيْنَةً للعلماء المسلمين. و لكنّ الّذي يدعو الىٰ الأسف أنّ الحضارة العظيمة هذه قد سلكت طريق الإنحدار بعد ازدهار لم يَدُمْ طويلاً و هي كما قال الشاعر المشهور حافظ الشيرازي: «أشرقت و هّاجةً نضرةً، لكنّ السموّ سريع السقوط». و منذ ذلک الحين و الىٰ و قتنا الحاضر خرجت المُبادأةُ في علم الفلسفة من أيدي المسلمين و حطّت رحالها في بلدان الغرب، و السؤال الّذي يطرح نفسه هو، ما هي عوامل سمو العلوم في تلک البرهة؟ و ما هي أسباب الإنحطاط؟ لِمَ انحدر العلماء المسلمون بعد تلک الإشراقة البهيّة و الإكتشافات العلميّة الجذّابة؟ و كيف تمكن الأوروبيون الّذين كانوا في ظلمات القرون الوسطىٰ و التوحش الثقافي يعمهون، أنْ يُسيطروا علىٰ الميدان فجأة و يأخذوا المبادرة من العلماء المسلمين و يرفعوا راية العلم و التكنولوجيا في العالم؟

إنّ الحضارة الأوروبيّة و ديدنها في العنجشهيّة و النظرة الأستكباريّة لمْ تكتفِ بتحقير الحضارات الأخرىٰ ولكنها تسعىٰ الىٰ فرض سيطرتها و حضارتها علىٰ شعوب العالم أجمع.

هذا بالإضافة الىٰ أنّنا نسمعُ في الأونة الأخيرة نغمة الزحف الثقافي الغربي، و الحقيقة أنَّ هذا الزحف الثقافي الغربي قد بدأ منذ سنواتٍ خَلَتْ، و إذا لمّ نتجهَّزْ بسلاحٍ واقٍ فلا نتمكن أن نخرج من هذه المُنازعة النضاليّة فائزينَ.

نعم إنَّ الدخول في هيجاء و وطيس كابن بجهدة خبيرٍ مُطّلعٍ يُحتّمُ علينا معرفة نقاط قوّة وضعف العدو. لذا يجب علينا معرفة العوامل الّتي سَمَت بالمسلمين الىٰ الرفعة و العلو و التقدم العلمي خلال القرن الرابع الهجري، و ذلك لأننا لو عرفنا تلك العوامل نتمكن أن نجعلها دافع الميسرة وَ سُلّم الرُّقي لثورة علميّة تُعيد لأُمّتنا أمجاد العلماء العظماء كالفارابي و ابن‌سينا و ابي ريحان البيروني و البوزجاني و غيرهم. و من الطبيعي سنكون في هذه الحالة كطود شامخ ينطق من موقع القوي المسطير المتمكن اثناء بحث الحضارات، أو الزحف الثقافي.

و بما أنَّ العلوم و الحضارة الأُوروبيّة علىٰ طرفي نقيض مع المعنويات لذا و برغم الدعاية الواسعة الّتي ينشرها الغرب بواسطة وسائل الاعلام الكثيرة المتنوعة لايمكنة أنْ يكون قائداً أو زعيماً أوهادياً لعالمنا الراهن ولا ناصراً أو ناجياً أو دليلاً أوعوناً له. أمّا نحن أصحاب الدين الاسلامي صانع البشريّة نتمكّن بواسطة العلم والأخلاق أن نكون رأس النفيضة و قادة رأس الطليعة للمسيرة البشريّة و نصبح الفائزين في صراع «الزحف الثقافي». و بناءً علىٰ ما تقدّم بذلنا ما في وسعنا من أجل تقديم عوامل سموّ و انحطاط العلوم في الحضارة الاسلاميّة، بهذه السطور و من اللّه التوفيق.

القسم الأوّل:

كيفيّة معرفة عوامل سموّ و انحطاط العلوم في الحضارة الاسلاميّة:

قالَ عالم الرياضيات الأمريكي هوكبن (Hogben) في كتابه الرياضيات للجميع:

«رياضيات أيّ أُمّة مرآة مظاهر حضارة و تقدّم تلك الأُمّة»[١]. و قد كرّرنصّ هذا الرأي المرحوم الدكتور محسن هشترودي في أحد مقالاته. و قد يعتبر هذا الرأي شاهداً علىٰ أنّ تقدّمَ الرياضيات في أيّ أُمّة دليلٌ علىٰ تقدّم تلك الأُمّة في كافة المجلات العلميّة و الحضاريّة، و ذلک لأنّ علم الرياضيات أنبل العلوم جميعاً و ترتبط بعقل الانسان ارتباطاً وثيقاً و مباشراً.

و من أجل معرفة عوامل سموّ و انحطاط العلوم في الحضارة الاسلاميّة حَسْبُنَا مصنفات و مؤلفات علماء الاسلام في علوم الرياضيات من عصر الخوارزمي يعني عصر النهضة العلميّة الىٰ عصر الشيخ البهائي يعني عصر الركود العلمي. و إذا أحصينا المصنفات الرياضيّة المؤلفة في تلک الفترة و أخذنا بنظر الاعتبار سنة تأليفها و رسمنا رسماً بيانيّاً يمثل التغييرات الّتي طرأت علىٰ تلک العلوم، ثمَّ درسنا منحنيات ذلک «الرسم البياني» وفق مؤشرات علم الاجتماع لتبيّن لنا بأن عوامل سموّ و انحطاط العلوم في الحضارة الاسلاميّة قد ساير و وافق مخططات ذلک «الرسم البياني» الّذي يبيّن سمو و انحطاط الاجتماع آنذاک.[٢]

---

١. راجع مقدمة كتاب: L. Hogben. *Mathematics for the Milions*, New York, 1946.

٢. هيأالسيد أمان‌اللّه أديبي و بتوجيه كاتب هذه المقالة احصا أيات الكتب و الرسائل المؤلّفة في علم الرياضيات و النجوم من زمن الخوارزمي الىٰ زمن الشيخ البهائي، ثُمّ رسم لها رسوماً بيانيّة، ضمن تقدير نالهُ وضعنا هذه الرسوم في مقالتنا هذه، و نرجو من يرغب الحصول علىٰ تآليف علماء الرياضيات و النجوم أن يواجع المصادر التالية:

* الفهرست لابن النديم.
* تاريخ الحلماء للقفطي.
* كشف الظنون لحاجي خليفة.
* معجم المؤلفين لعمر رضا كمالة.
* هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي.
* وفيات الأعيان لابن خلكان.
* فوات الوفيات لصلاح الدين الصفوي.
* كتابشناسي توصيفي منابع علوم اسلامي. (٣ جلد)، تأليف دكتر سيدحسين نصر.

←

الأسم	عدد المؤلفات	سنة التأليف
محمد بن موسى الخوارزمى	۶	۲۳۲
ابوالقاسم الفرقاني	۳	۲۲۷
حبش الحاسب	۷	۲۵۰
محمد بن حسن	۱۳	۲۶۹
ابومعشرالبلخي	۳۶	۲۷۲
محمد بن عيسى الماهاني	۹	۲۷۵
احمد بن داوود الدينوري	۴	۲۸۲
ثابت بن قره الحرّاني	۱۸	۲۸۸
اسحق بن حنين	۱۴	۲۹۸
علي بن ربن الطبري	۴	۳۱۰
فضل بن حاتم النيريزي	۸	۳۱۰
بتاني الحراني	۴	۳۱۷
ابوزيد البلخي	۲	۳۲۲
سنان بن ثابت	۷	۳۳۱
ابراهيم بن سنان	۶	۳۳۵
ابونصر الفارابى	۴	۳۳۹
اخوان الصفا	۱۴	۳۴۰
احمد بن ابراهيم اقليدس	۲	۳۴۳
ابوجعفر الخازن	۱۰	۳۵۰
علي بن احمد الانطاكي	۷	۳۷۶
ابوالوفا البوزجاني	۱۹	۳۸۸
حامد بن خضر الخجندي	۴	۳۹۰
كياكوشيار الگيلاني	۴	۴۰۰
ابوسهل الكوهى	۲۲	۴۰۵
عبدالجليل السجزي	۳۵	۴۱۵
محمدبن حسين الكرجي	۷	۴۲۰

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

→

* تاريخ علوم اسلامي، تأليف جلال‌الدين هُمائي.

* زندگينامه علمي دانشوران، ترجمه أحمد آرام، حسين معصومى همدانى، و ديكران.

* زندگينامه علمى رياضيدانان دورهٔ اسلامي، ابوالقاسم قرباني.

الأسم	عدد المؤلفات	سنة التأليف
ابو علي مسكويه	٥	٤٢١
ابونصر عراق	٧	٤٢٧
ابن سينا	٥	٤٢٨
ابن هيثم	٦٤	٤٣٠
ابوريحان البيروني	٧٧	٤٤٢
ابوالحسن القائني (ابن بامشاد)	٢	٤٤٣
علي بن احمد النسوي	٤	٤٧٣
محمد بن ايوب الطبري	٣	٤٨٥
أبوالفتح الاصفهاني	٢	٥١٣
حسام‌الدين سالار	٦	٥١٤
ابو حاتم مظفر الاسفزاري	٢	٥١٥
الحكيم عمرالخيام	٤	٥٢٦
عبدالرحمان منصور الخازني	٢	٥٥٠
شرف‌الدين الطوسي	٦	٦١٠
محمد بن حسين الدامغاني	٢	٦٢٠
اثيرالدين الأبهري	٥	٦٦٣
كمال‌الدين الفارسي	٣	٧١٨
نظام الأعرج	٣	٧٥١
ابن شاطر	١٨	٧٧٧
غياث‌الدين جمشيد الكاشاني	٥	٨٣٢
ملا علي القوشجي	٣	٨٧٩
ميرم الجلبي	٢	٩٢٨
عبدالعلي البيرجندي	٣	٩٣٤
غياث‌الدين منصور الدشتكي	٣	٩٤٩
الشيخ البهائي	٣	١٠٣١

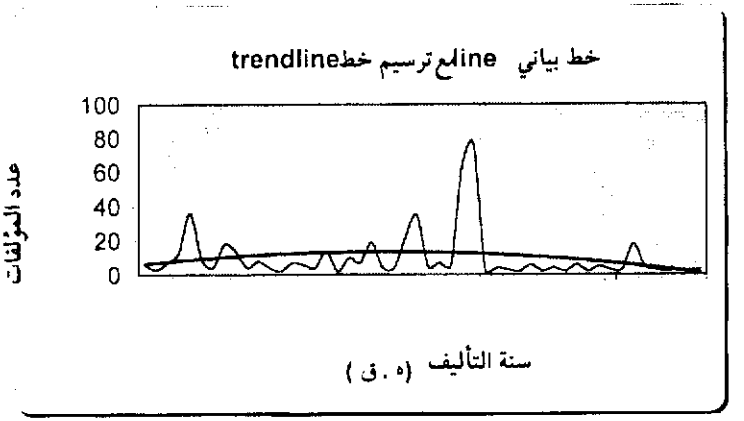
خط بیاني lineمع ترسیم خطtrendline
100
80
60
40
20
0
عدد المؤلفات
سنة التأليف (ه . ق)

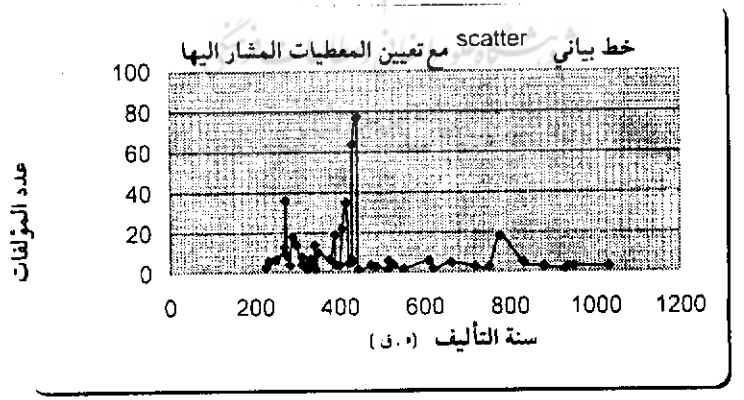
خط بیاني scatter مع تعیین المعطیات المشار الیها
100
80
60
40
20
0
عدد المؤلفات
0
200
400
600
800
1000
1200
سنة التأليف (ه . ق)

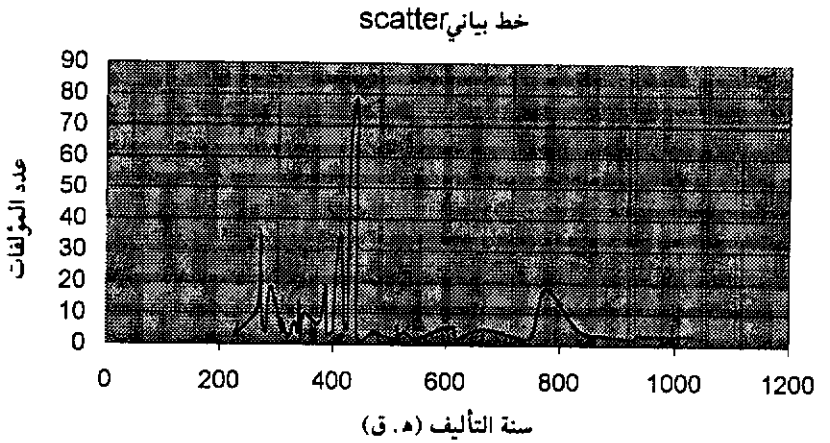
خط بيانيscatter
عدد المؤلفات
90
80
70
60
50
40
30
20
10
0
0
200
400
600
800
1000
1200
سنة التأليف (هـ. ق)

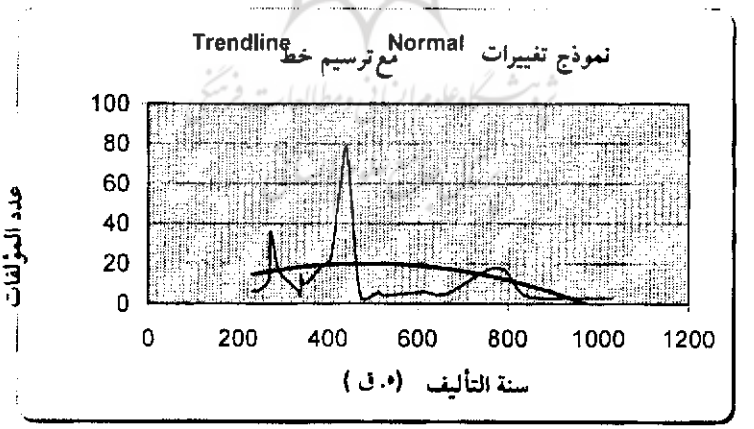
نموذج تغييرات Normal مع ترسيم خطTrendline
عدد المؤلفات
100
80
60
40
20
0
0
200
400
600
800
1000
1200
سنة التأليف (هـ. ق)

خط بیانیscatterمع ترسیم خطtrendline

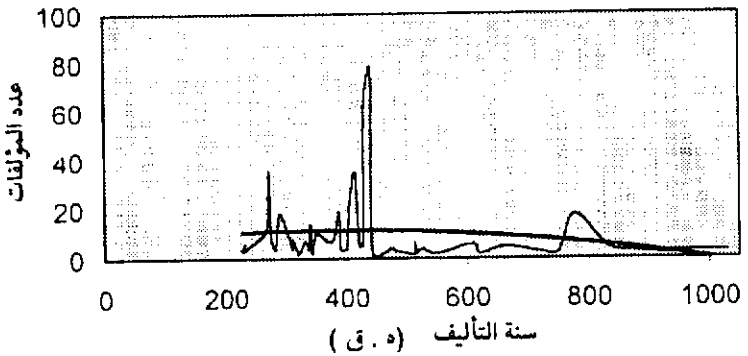

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

خط بیانی column

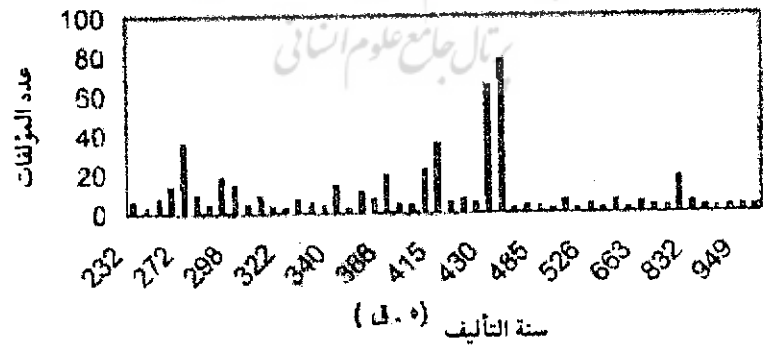

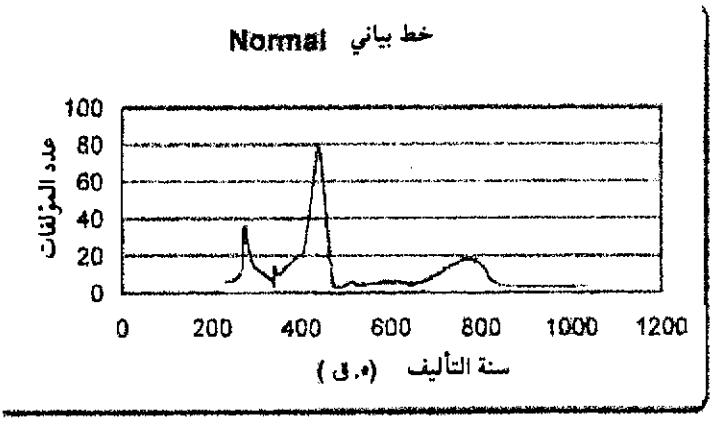

القسم الثاني:

عوامل سموّ و انحطاط العلوم في الحضارة الاسلاميّة:

إذا ألقينا نظرة علىٰ منحنيات هذه الرسوم البيانيّة نرىٰ أنَّ نقطة أوج السموّ في المنحنيات كانت في القرن الرابع الهجري (عصر حكومة آل بويه) و شملت مناطق واسعة من العالم الإسلامي، (نعم لقد حكم في القرن الرابع الهجري في ايران طوائف كالغزنويين و السامانيين ولكن أهمّ المناطق كانت ضمن حوزة آل بويه). و قد أدىٰ التقدم العلمي الفائق في عصر آل بويه بالمستشرقين الغربيّين أمثال البروفسور «آدامز» و البروفسور «كرامر» أنْ يطلقوا اسم عصر «النهضة العلميّة» علىٰ ذلك العصر تشبيهاً لهُ بعصر النهضة الثقافيّة العلميّة (Renaissance) في أُوروبا.

ثُمَّ نشاهد منحني ذلك الرسم البياني يبدأُ بالإنخفاضى في العصر السلجوقي الّذي أعقب حكومة آل بويه مباشرة بعد القضاء عليها عسكريّاً والاستيلاء علىٰ مناطق سُلطانها و يعتبر ذلك العصر نقطة انطلاق الإنحطاط و سندرس اسباب ذلك الانحطاط فيما بعد.

أمّا حملة جنكيز خان المغولي علىٰ ايران فقد زادات الطين بلّةً، ولكن وجود

«نصیرالدین الطوسي» في تلک الآونة وسعية المتواصل من أجل التقدم و الازدهار العلمي و خاصّة «علم النجوم» قد خفف وطأة الإنخفاض ولكنه لم يرتقِ بالعلوم الىٰ المستوىٰ الّتىٰ كانت عليه في القرن الثالث و الرابع الهجري.

و إذا شبّهنا مسيرة العلوم بنهرٍ قد ظهر أمامه حائلٌ، فمن المؤكّد أنَّ مسير الماء سيتحول الىٰ جهة أَخرىٰ يجري فيها، كذلک الحال بالنسبة الىٰ مسيرالعلوم، فقد كان انتصار السلجوقيين و تسلطهم علىٰ السلطة سَدَّاً أمام المسيرة التقدميّة للعلوم وكان ذلک موازياً للحروب الصليبيّة و تواجد الأُوروبيين في الشرق و اطلاعهم علىٰ علوم التمدن و الحضارة الاسلاميّة قد أدّىٰ الىٰ تغيير مجرىٰ العلوم نحو البلاد الأُوروبيّة.

كانت أُوروبا غارقة في بحر من ظلمات القرون الوسطىٰ في حين كان الشرق يزهو و خلال قرون عديدة بالحضارة الإسلاميّة الباهرة. ثُمَّ بدأ الغرب يصحو من سباته رويداً رويداً نتيجة اطلاعه علىٰ آثار العلوم و الحضارة الإسلاميّة، حيث بدأوا أثناء تلک الفقرة بترجمة كتاب الجبر و المقابلة للخوارزمي، و كتاب المناظر لابن هيثم، و مصنفات ابن‌سينا الفلسفيّة و العلمية ككتاب القانون و غيره، و مئات المصنفات و المؤلفات الأُخرىٰ.

و بعد حركة الترجمة و اطلاعهم علىٰ علوم الشرق الإسلامي بدأ علماء تلک الديار بتأليف و تصنيف الآثار المتعدّدة في شتّىٰ ضروب العلوم و بهذه الجهود المتواصلة هيَّأوا أَرضيّة النهضة العلميّة.

في الوقت الذي كانت شمس العلوم تتماثل للغروب في عالمنا الإسلامي وكان ظلام ليل الإنحطاط الدامس يزحف نحوها بدأ نجم العلم يظهر في سماء العلوم بأُوروبا و بدأت الإنتفاضة في مجالات العلوم المختلفة.

فمثلاً كان الشيخ البهائي العاملي من رجال الرياضيّات في العصر الصفوي بأيران، و صنف كتابه المعروف في علم الحساب خلاصة الحساب، ولو نظرنا اليه نظرةَ مُتفحّصٍ و وضعناه في مصاف كتب «البوزجاني» و «الكرجي» و هما قد سبقاه بعدة قرون، نراهُ قد خسرَ الميزان كَمَّاً و كيفاً و علماً، و كذا رسالة تشريح الأفلاک كتبها في

تثبيت هيئة بطلميوس، فهي لمْ توازِ أعمال المنجمين الّذين سبقوهُ زمنيّاً.

ولكننانرى و بنفس تلك البرهة الزمنيّة كُپرنيک قد أوجد «آلة مركزية الشمس» بدل «آلة مركزية الأرض»، و أوجد بعمله هذا ثورة عظيمة تركت تحوّلاً كبيراً في علم النجوم. وكذا «كپلر» و «نيوتن» و علماء غيرهم قد قدّموا خدمات أوجدت تحوّلاً كبيراً في علم الرياضيات والفلک، و مهّدوا الطريق أمام العلماء لإكتشافات أعلىٰ مكانة و أكثر فائدة.

و الآن عرفنا عُصور سموّ و انحطاط العلوم الإسلاميّة، وها نحن نتابع موضوع عوامل هذا السموّ و أسباب الإنحطاط و بدراسة تستند علىٰ علم الاجتماع.

كان أوج سموّ العلوم كما ذكرنا فيما تقدّم موازياً لعصر حكم آل بويه في بلاد فارس (ايران)، و أرض الرافدين (العراق)، فما هي ميزات ذلک العصر المميّزة؟ نظرة فاحصة يوجهها المحقق الىٰ صفحات التاريخ تظهر أمام نظراته الثاقبة الميّزات التالية الّتي تميّز هذا العصر عن العصور التاريخية الأُخرىٰ:

١ ـ تشييد البيمارستانات (المستشفيات)، و السدود، و القنوات، و القصور، و تنمية التجارة الخارجيّة و الداخليّة، وسعة العيش، و كُلّ هذا كان نتيجة للتقدم و الإزدهار الاقتصادي في هذا العصر.

٢ ـ ابتعاد شبح الحرب عن البلاد و العباد مِمّا أدّىٰ الىٰ الاستقرار و الآمن، و الثبات السياسي

٣ ـ نرىٰ في تلک الفترة كثرة حلقات الدرس و البحث، و دراسة المواضيع الدينيّة و السياسيّة و الفلسفيّة و الأدبيّة و الفنون الجميلة و محاضرات و مناظرات العلماء في مجال كافة العلوم المشار اليها، حيث أشار أبوحيّان التوحيدي في آثاره الىٰ بيان عدد من تلک المناظرات.

و مّما يجدر الاشارة اليه هو أنَّ هذه الحلقات لمْ تقتصر علىٰ علماء الاسلام فقط بل كان يشترک في أبحاثها علماء الأديان و الملل الأُخرىٰ مثل الزرادُ شتي و العيسوي و الموسوي و الصابئي، وكُلٌّ يُظهر رأيه بحريّة تامّة من أجل الوصول الىٰ ما هو أسمىٰ و أصلح.

أمّا حكومة آل بويه المقتدرة فكانت مع كُلّ هذا سيف دين الاسلام المبين المدافع عن كيان دين محمد (ص). و كان عضدالدولة البويهي شاه هذه السُلالة يتحلّىٰ بايمان راسخ و غيرة اسلاميّة شامخة، يضرب بيدٍ مقتدرة علىٰ رأس من ينتهز مسرح الحريّة من أجل ايجاد الفتنة و التفرقة و شقّ الصفوف.

و هذا يفسحُ المجال أمامنا من أَنْ نعيّنَ و نُحصَر العواملَ المؤثّرة في تقدّم العلوم في العصر البويهي بمايلي:

١ ـ الاقتصاد النشيط الزّاهر.

٢ ـ الإستقرار السياسي.

٣ ـ حريّة الرأي الممنوحة من أجل اظهار الرأي الآخر شريطة أن لايؤدي هذا الىٰ الفتنة و الإضطرابات.

هذه العوامل تأتي نتيجة دراسة الحضارة الاسلامية، كما أَنَّ دراسة الحضارات الأُخرىٰ لاتعطيكَ سوىٰ هذه النتائج الثلاث المشار اليها فقط. أو بعبارة أَوضح نتمكن أن نجزم بأن وجود هذه العوامل الثلاث في أيّ مجتمع تؤدي حتماً الىٰ تقدّم علميّ منشود.

١ ـ **الاقتصاد النشيط الزاهر**، يعتبر هذا العامل من العوامل المهمّة حيث يكون عاملاً لاستقطاب العلماء و تزويدهم بما تتطلب أعمالهم من الوسائل والمهمّات و الأدوات، كي يتمكّنوا و براحة بال و هدوء نفس من تنفيذ دراساتهم و اجراء اختباراتهم لأن هرب العقول النيّرة من بلدان العالم الثالث يعود اوّلاً و أخيراً الىٰ العوامل المشار اليها أعلاه، حيث تواجدهم في بلدانهم و برواتب نزيرة و عدم وجود وسائل للبحث و التحقيق و الاكتشاف و الاختراع جعلهم يفضلون البقاء في الدول الّتي درسوا العلوم فيها كأمريكا و أُوروبا و تكون ثمرات علومهم وجهدوهم لتلك البلدان و حرمان الوطن الأُم من تلك الجهود المثمرة النادرة.

٢ ـ **الإستقرار السياسي**، من الطبيعي أَنَّ العلماء المتواجدين في البلدان الّتي

تجتاحها القلاقل و الفتن و الاضطرابات و الحروب و النزاعات الطائفية و العرقيّة و المذهبيّة و فقدان الاستقرار السياسي لايتمكّنون من القيام بالأعمال النافعة سواء دراسيّة كانت أم صناعيّة او انشائيّة أو اكتشافيّة. فمثلاً ديكارت (Descartes) الفيلسوف و عالم الرياضيات الفرنسي المشهور لمْ يتمكن من الإستقرار في بلده فرنسا، حيث هاجر الىٰ هولنده و السويد، و ذلک لان بلده فرنسا قد أُبتُلي بالحرب الداخلية في تلک الآونة.

كما نرىٰ التقدم السائد في امريكا خلال القرن العشرين، كان الفضل في ذلک التقدّم للحرب العالميّة الثانية، و ذلک لأنَّ الحرب المذكورة كانت في بلدان أُوروبا الشرقيّة و الغربيّة، و إنَّ علماء تلک البلاد قد تركوا أوطانهم و استقرّوا في امريكا و خاصةً العلماء الأَلمان و اغلبهم من اليهود حيث هاجروا الىٰ امريكا خوفاً من النكاية و البرحاء و الضير النازي الهتلري، و كانوا هم أصحاب الفضل في التقدم العلمي الّذي ساد أمريكا في مجال الرياضيات و الفيزياء و الفلک حيث أصبحت أمريكا قِمّة الدول من الناحيّة العلميّة و الرُّقي الصناعي، أمّا الناحيّة السلبيّة الّتي استغلتها أمريكا في هذا المجال و صنعت بواسطة هؤلاء القنبلة الذريّة و أبادت الآلاف من البشر الأبرياء هو بحث يجب التأمل و التدبّر و التروّي و لامجال له في هذا البحث لأنّهُ ليس المقصود هُنا.

٣ ـ **حريّة الرأي و الرأي الآخر**، لايخفىٰ علىٰ من لهُ علمٌ في تاريخ العلوم بأُوروبا مدىٰ حرية الرأي الممنوحة للمناوئين، لأن العلوم في تلک الديار قد تخلّصت من سيطرت الكنيسة و ديوان تفتيش الاعتقاد الّذي فرضته، قبل قيام الانتفاضة العلميّة فيها، و الكُلُّ يعلم ما واجهه العلماء من الظلم و التعسف و التعذيب و الإعدامات نتيجة بيان معتقداتهم، و الإتهامات الّتي واجهها هؤلاء مُتشابهة، و هي مخالفة مبادئ دين اليسوع (ع) و مناهضة المسيحيّة.

و الآن و بعد أن عرفنا عوامل التقدم العلمي الثلاثة نتوجّه الىٰ دراسة عصر النهضة الإسلاميّة لكي نلاحظ كيف ظهرت تلک العوامل الثلاثة ساطعة في ذلک العصر، و ما

آلت اليه هذه العومل في العصر الّذىٰ تلىٰ عصر آل بويه و نعني به العصر السلجوقي.

من المتّفق عليه أنَّ الدينَ الاسلاميَّ دينٌ يُساندُ العلَم و العلماءَ، و لمْ يظهر أيُّ دين علىٰ وجه المعمورة قد رغّبَ وحثَّ أنصارَهُ علىٰ طلب العلم وجعله فريضة واجبة كالدين الإسلاميّ، جعلَ الدينُ الاسلاميُّ العلماءَ (أي: مَنْ آمنَ باللّٰهِ واليوم الآخرِ) كأنبياءِ بني اسرائيل. و يرفض هذا الدين المبين أيّ سؤال غير عقلاني، كما أَنَّ القُرآنَ الكريمَ يأمرُ خلال آياته كافة المسلمين بالتدبر و التفكر بظواهر الكون الّتي أوجدها واجد الوجود. كما أَنَّهُ لم يضع للعلم و البحث العلمي حدّاً و نهاية مكانيّة أو زمانيّة، و شعار الدين الاسلامي كما جاء علىٰ لسان الرسول الأكرم (ص):

* تعلّم العلمَ منَ المهدِ الىٰ اللحدِ

* اطلَبِ العلمَ ولو كانَ في الصينِ

و لاترىٰ في هٰذينِ الحديثين حدّاً زمانياً، و لاحدّاً مكانياً و خصوصاً أنَّ الصين تعتبر من أبعد البلدان عن جزيرة العرب و في زمن لم يعرف وسائل النقل الحديثة.

و بناءً علىٰ ما تقدم يكون طلبُ العلم واجباً شرعيّاً علىٰ كافةِ المؤمنين تنفيذه.

وكما يعلم كلّ صاحب بصيرة أَنَّ الغزوات الداخلية و الحروب الخارجيّة في زمن رسول اللّه (ص) و الخلفاء الراشدين كانت حائلاً رئيسيّاً أمام أيّ نهضة علميّة.

و في العصر الأموي نرىٰ رقعة الخارطة الاسلاميّة قد توسَّعَت، و انَّ بني أُميّة قد تربّعُوا علىٰ عرش الامبرا طوريّة الإسلاميّة حيث اتّخذ الموضوعُ وجهة أُخرىٰ، لأن الخلفاء الأمويين و انصارهم كانوا سجسةً متهتّكين ذوي غُلْمَةٍ و شَبَقٍ و نَزَّةٍ، و لا يتورَّعون من ارتكاب أكبر و أفجع الجرائم كي يصلوا الىٰ عريشة السُّلطان و التسلّط علىٰ البلاد و رقاب العباد، و لا أهميّة لهم بالدين و لا مكانة لديهم للعلم و الثقافة و قد اتَّخذوا الخلافة مأرباً للوصل الىٰ الشهوات و التمتّع باللّذات و طلب الدُّنيا وزينتها. و في زمن هٰؤلاء الخلفاء ظهرت فرقةُ «المُرْجِئَةِ» و استفحل أمرُها. كيف ظهرت هذه الفرقة و ما هي مقوّمَاتها، لا ندري، وكلّ ما نَعْلَمُهُ أنَّ بني أُميّة كانوا الساعد الأيمن في انشاء هذه الفرقة، وكان لهم الأثر الاكبر في نشوء و ترعرع و ترويج مبادئها.

أصل كلمة «المُرْجِئَة» مُشتقّة من:

«أَرْجَأَ الأَمْرَ إِرْجَاءً» أَخَّرَهُ. و هم يعتقدون بتأخير الجزاء، و قدأدّىٰ اعتقادهم هذا الىٰ الاستهتار و للّامبالاة. أمّا من الناحية السياسيّة و الاجتماعيّة فقد أدّىٰ الىٰ ردّ فعل سياسي هَيَّأَ الأُمّة نفسيّاً أَنْ تتقبّل أيَّ حكومة حتّىٰ اذا كانت ظالمة جائرة باغية طاغية. لذا فهم يعتقدون «أنَّ الحكم الأمويّ حكمٌ اسلاميٌّ واقعيٌّ و أَنَّ خلفاء بني أُميّة خلفاءُ حقٍّ ولايحقُّ للمسلمين الثورة عليهم شرعاً»[۳]، كما يعتقدون «بالجبر» و ينكرون أيَّ أختيار للإنسان في عمله. و كما لايخفىٰ أنَّ الاعتقاد بالجبر يسلب الانسانَ عملهُ الفكريَّ و الثقافيَّ، كما يفتح الباب علىٰ مصراعيهِ أمام حُكّام البغي و الظلم و الفساد كي يعبثوا في الأرض فساداً، و بناءً علىٰ هذا «قتلَ بنوأُميّة كُلَّ من ادَّعىٰ الحقَّ و طَلَبَ الحريّة و رفض الجبر أو أيّد هذه الأفكار قولاً أوعملاً»[۴]

و في هذا العصر أيضاً ظهرت فرقةٌ ضالّةٌ أُخرىٰ جمعت حولها الانصار و المؤيدين هي فرقة «الخوارج» و هم علىٰ خلاف فكرة «المرجئة»، ساد التزمت و الشدة و الشَّراسة و الخشونه الفائقة علىٰ كافة اعمالهم، فهم يتّهمون النّاس بالكفر و الإلحاد و يهدرون دمَ مَنْ شاءوا.

و نتيجةً لهذه التصرفات اللّامتعادلة ولدت و نشأت و ترعرعت و في مهد الحكومة الأمويّة و علىٰ مسمع و مرأىٰ من خلفائها فرقة عرفت بـ«المعتزلة»، و اتَّخذت مبدأ «الاختيار» شعاراً لها.

و كان الاعتقاد الديني للمعتزلة مقارباً لأفكار الشيعة، ثُمَّ اتَّخذوا شعار مناوأة الأمويين مبدأ نضالهم حيث انضمّوا الىٰ الحركة العباسيّة، ثُمَّ تقلّد بعضُ علمائهم مناصب حكوميّة أبّان الدولة العباسيّة، وكان للمعتزلة دور فعّال في ترغيب و تشجيع وحثّ المسلمين علىٰ الدراسة وكسب العلوم و المعارف.

---

۳. حسين مفتخري «مرجئه ونو مسلمان»، فصلنامهٔ تاريخ اسلام، سال دوم، شماره ۱، بهار (۱۳۸۰).

۴. محمدجواد صاحبي «ستيزهها و آميزهها در روند انديشه توحيدى» كيهان انديشه، شماره ۳۷، مرداد و شهريور ۱۳۷۰، ص ۲۰.

و قد اغتنم الامام الصادق (ع) فُرصة الصراع الأموي العباسي و بدأ بنشر الفقه و العلوم و الثقافة الاسلاميّة، و خرَّج علماء كبار لافي العلوم الدينيّة فحسب، بل في كافة مجالات العلوم السائدة في ذلک الزمن، و من مشاهير هؤلاء العالم الاسلامي الكبير و الكيمياوي الشهير جابر بن حيّان صاحب المؤلفات العظيمة الّتي خلّدته مع الزمن و خلّدها في دنيا العلوم.

كان العصر العباسي عصر الامبرا طوريّة الاسلاميّة المترامية الأطراف، و كان يعيش في أكنافها أُناس يعتنقون الأديان الأُخرىٰ و يرغبون التعرّف علىٰ الدين الجديد (أي الاسلام) و يستفهمون عمّا يخطر في خلدهم من الأفكار و الهواجس و الاستفهامات من كبار علماء الدين الاسلاميّ. و لهذا كان قد اجتمع عددٌ من المانويّين، و الزراد شتيّين، و المسحيّين واليهود بعلماءِ المسلمين و تباحثوا بمواضيع أساسيّة، مثل نشأت الكائنات و قِدَم العَالَم، و الجبر و الإختيار، و القضاء و القدر، و صفات واجب الوجود، و غير ذلک.

و من أجل الاجابة علىٰ هذه الأسئلة الفلسفية و الكلاميّة أمر المأمون (الخليفة العباسي السابع) بن هارون الرشيد و بتحبيذ و اغراء و إطراء علماء المعتزلة، أمر علماء النساطرة المسيحيين المسيطرين و باجادة تامَّة علىٰ اللغة اليونانيّة أنْ يُعرّبوا كُتُبَ الفلسفةِ اليونانيّةِ.

و كان التعرفُ علىٰ المصنّفات الفلسفيّة اليونانيّة باباً للتعريف علىٰ الآثار العلميّة الأُخرىٰ و أدّىٰ الىٰ الرغبة في ترجمة الكُتُبِ الطبيّة و الرياضيّة و الفلكيّة من اليونانيّة الىٰ العربيّة و قد جرىٰ ذلک في العصر المشار إليه أعلاه.

و كان نهم المسلمين فى طلب العلم قد جعل من حركة ترجمة الآثار الأجنبيّة الىٰ العربية ثورة علميّة عارمة، و عُرفت في ذلک العصر بـ«ثورة الترجمة».

و لمْ يكتفِ العلماء المسلمون بترجمة الآثار اليونانيّة فقط بل أمتدت يُد الترجمة الىٰ المصنفات و المؤلفات الايرانيّة و الهنديّة و البابليّة حيث تمَّ ترجمتها الىٰ العربيّة.

و يجدر بنا هنا أن تعترف بفضل «حُنين بن اسحاق» و «ثابت بن قُرّة الحرّاني»

لمشاركتهما الفعالة المتميّزة في تعريب آثار العلماء اليونان.

و كان صدىٰ ثورة الترجمة و اضحاً في المجتمع الاسلامي اذا بدأ العلماءُ المسلمون بتأليف كُتُب في علوم الرياضيات و الفلك و الفيزياء و الفلسفة، و من أشهر تلك المؤلفات رسالة الجبر و المقابلة للخوارزمي.

و صارت العلومُ الاسلاميّة علوماً ابتكاريّة تمثل رحيق العلوم اليونانيّة و البابليّة و الهنديّة. مثلاً رسالة الجبر و المقابلة للخوارزمي، علىٰ الرغم من أنها تحوي عناصر من العلوم البابليّة و اليونانيّة، و لكنها عمل ابتكاري حديث لمْ نجده قبل ذلك المصنف في المحيط العلمي في تلك الآونة. و هذا الإدّعاءُ صادقٌ في أعمال أبي زكريا الرازي، ذلك العالم الكيمياويّ و الطبيب الإسلاميّ المشهور، كان الرازي اذا أعدَّ دراسة عن مرض من الأمراضِ يدون نظريّات العلماء الذين سبقوه اوّلاً ثُمَّ يدون نتائج دراسته المختبريّة الّتي توصل اليها كي تكون الدراسة كاملة الفائدة.

كان الخلفاء العباسيون في بادئ الأمر يُساندون العلماء و يدعمون الباحثين ماديّاً و عمليّاً، و لكن السياسة القمعيّة الّتي اتّبعوها فيما بعد كانت تعرقل مسيرة التقدم العلمي.[٥]

بالإضافة الىٰ أنَّ الترغيب و الثناء العلمي الّذي قدَّموه كان قد واكبه مآرب سياسيّة لا تخفىٰ علىٰ أولئك العلماء.

و كُلّنا تعرف نظرية المعتزلة في خلق القرآن و اختيار الإنسان في أعماله زمن حكومة المأمون و كيف اتَّخَذَ هذه النظريّة سلاحاً لإبادة المخالفين، و كيف تنفّذ «المعتصم» و «الواثق» و بصرامة خارقة هذه السياسة القمعيّة، حيث أمرا باغتيال و إبادة كُلّ مَنْ خالفهم مِنَ العلماء أما بالإعتقال ثُمَّ الاعدام أوبالقتل غدراً.

و لكن هذه المسيرة لمْ تدم طويلاً حيث جلس «المتوكل» علىٰ منبر الخلافة العباسيّة وساند عقائد «الأشاعرة» و من ضمنها الاعتقاد بالجبر، ثم ساد «المذهبُ الأشعريُّ» العالَم الاسلاميّ حيث عمَّ الاختناق الفكري و سلب الحريّات، بالإضافة

٥. راجع: الدكتور فهمي جدعان، المحنة، بحث في جدلية الدين و السياسة في الاسلام، الأُردن، ١٩٨٩ م.

الىٰ أنَّ النزاع علىٰ السلطة و محاربة الحركات الإنفصاليّة قد حرم الشُعُوب الاستقرار الاجتماعي و الأمني و السياسي و أوّل من أبتلي بهذا الدّاء هم العلماء و الفلاسفة حيث لا راحة فكرية ولاصفاء عيش ولا نتاجاً علميّاً.

استمرّت هذه الحالة الىٰ سنة ۳۳۴ هـ يعني السنة الّتي سقطت بغداد بيد احمد الديلمي، حيث سخرّت جُيُوش الديلم عاصمة الخلافة.

نعم في هذه السنة تمكّن القائد الديلمى أنْ يفتح نصف ايران ذلک الزمن، و بدون أيّ مقاومة تذكر و تمكّن من دخول بغداد و السيطرة عليها، وَ عزَلَ الخليفةَ العباسيَّ و نصبَ نفسَهُ «شاهنشاه = ملک الملوک» علىٰ ايران و العراق و بدون منازع أو مخالف.

كانت سلطة آل بويه سنة ۳۵۱ هـ (زمن سلطنة عضدالدولة) قد وصلت ذُروتها حيث تسلط سلطانها علىٰ ثُلثي ايران و جميع ما بين النهرين (العراق).

كان الأميرُ البويهيُّ الملقب بالشاهنشاه شيعيَّ المذهبِ و من أجل القضاء علىٰ التناحر بينَ أصحاب المذاهب السُنَّة و بين ابناء الشيعة أبقىٰ الخليفة علىٰ منبر الخلافة مذهبياً، و سلبه كافة السلطات السياسيّة و جعله أُلعوبة بين يديه، و تمكّن هذا الأمير و بهذه الطريقةِ اللَّبِقةِ أن يسمک زمام أُمور حكومة الشيعة و السُنَّة سنوات عديدة. و قد وصفه أبو سليمان المنطقي السجستاني قائلاً: «كان ملكاً كامل الأوصاف، لأنّه يحترمُ الأُمَّة صغيرها و كبيرها، كما كان بصيراً و عليماً بأُمور الملک، ماهراً بشؤون السلطان، عادلاً، عميق الايمان، صادق العمل، فيصل القضاء حاسماً».[۶]

و بعد أنْ عمَّ الهدوء وخيمَّ الأمن، توجّه عضدالدولة الىٰ الاقتصاد الوطني حيث غيّر وحدة النقد و نظّم الأمور الماليّة و السياسة النقديّة مما بعث الروح في الاسواق و التوسعة التجاريّة في المدن و خصوصاً مدينة بغداد.

نعم انَّ الثروة الوطنية تستند بشكل واسع علىٰ المزارع و البساتين و الحاصلات

6. T. Ben Yakhlef, *Abu Sulayman al-Mantiqi*, Memoire de Maitrise, Université de paris I Sorbonne 1994, p. 106.

الزراعيّة و الّتي كانت تُسْقىٰ سيحاً بواسطة الآبار و العيون و القنوات، أمّا التجارت الداخليّة و الخارجيّة فتعتبر رأس مال المدن و واردها الرئيسي.

و كان هذا الاقتصادُ الفعّالُ ارضيّةً خصبةً لتأمين المال اللازم للاعمار و البناء، و استناداً علىٰ هذه الموارد المتدفقة شيَّدَ عضدالدولة الجسور و السدود و المدارس و المساجد و المستشفيات و...، و قد وصف شمس‌الدين المقدسي الرحالة المشهور و صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» قصر عضدالدولة المُقام في مدينة «شيراز» و بيّن أنواع فنون الأعمار و جمال الزخرفة و زهو المناظر الخلّابة الموجودة فيه. كما شيّد سداً في ضواحي شيراز علىٰ نهر «كُرّ» و سُمّي تعظيماً لهُ «سدّ الأمير»، و كانت عظمت ذلک السَّدِّ تحكي التقدم الهندسي و الفن المعماريّ المتكامل في ذلک العصر.

أمّا التقدم الثقافي فكان زاهراً زاهياً كالصرح السياسي و الاقتصادي، و لعضدالدولة اليدالطولىٰ في هذا المضمار، و من أهمّ أعماله تأسيس المدارس العُليا و حلقات الدراسة العلمية و الفلسفيّة، حيث كانت منتدىٰ العلماء و الفلاسفة و الأدباء يبحثون فيها ما طُرَحَ علىٰ بساط البحث من المسائل الدينيّة و الفلسفيّة و العلميّة.

و كان عضدُالدولةِ المُشجّعَ لهؤلاء الفلاسفة و علماء الدين و الأخلاق و المؤيّد لنتاجهم، ولايخفىٰ دور هذه الأمير في حثّ العلماء علىٰ تدوين مصنفاتهم باللغة العربيّة المتداولة في المجتمعات العلميّة آنذاک و خصوصاً في تدوين الكتب العلميّة و الأدبيّة، كما كان العامل الرئيس في أحياء الثقافة الايرانيّة، لذا تلاحظ حركة تجمع علمي في حاضرة الامبرا طوريّة الاسلاميّة بغداد إذْ رحل اليها كبار العلماء آنذاک أمثال أبي سليمان المنطقي السجستاني، و أبي سهل الكوهي، و أبي الوفاء البوزجاني و غيرهم، حتىٰ أصحبت بغداد أكبر مركز علميّ علىٰ وجه البسيطة في ذلک العصر يغصّ بالعلماء الايرانيين، و كأن بغداد مدينة فارسيّة زاهرة.

كان عضدالدولة يؤكّد علىٰ أن تؤدي العلوم السياسيّة و الأخلاقيّة الىٰ علوم

الادارة المدنيّة كي يتمكّن من الإسترشاد بنصائح المتخصصين ذوي الخبرة و أصحاب الفنّ بالإضافة الىٰ انتخاب المشاورين البارزين من بين هٰؤلاء.

و من الجدير بالذكر أنَّ تدريس علوم الرياضيّات لمْ يكن من أجلّ التبحر و التعمق في مفازات تلك العلوم فقط بل كان التدريس من أجل تقدم الأُمّة و تحسين و ضعها في مجالات الحياة المختلفة.

كما يمكن استنباط رغبة البحث و التحقيق و اكتساب العلوم في علماء ذلك العصر من مقدّمات مصنفاتهم و مؤلفاتهم. مثلاً أبوبكر الكرجي عالم الرياضيات الايراني الشهير و من رجال ذلك الزمن، ذكر في كتابه «انباط المياه الخفيّة» ما معناهُ: عندما دخلتُ العراق، و رأيت أُمّة تلك الدّيار كبيرهم و صغيرهم يودُّون العلم، عرفت أَنَّ عليَّ أَنْ أحترم و أَعظم العلم، وكنت اثناء وجودي هناك اشتغل بالتصنيف في علم الحساب و الهندسة.[۷]

و عندما ترك عضدالدولة هذه الدُّنيا الفانية، اتّبع نجله بهاء الدولة سياسة والده الرشيدة الحكيمة و اتّخذ اللين و التسامح و التساهل و الرفق و النعومة و الهوادة مسلكاً.

أمست بغداد في ذلك الزمن مهداً للعلوم و المعارف يأمُّها العلماء و أساتذه العلوم من كلِّ حدبٍ وصوبٍ و يتّخذون التحقيق و البحث و التأليف و التصنيف مهنة، و ممّايلفت النظر أنَّ كافة العلماء قد هجروا رويداً رويداً طريقة اساتذتهم اليونان و في كُلّ العلوم المستوردة و المترجمة و استحدثوا أُسلوباً خاصّاً بهم استندوا عليه في مؤلفاتهم و كتبهم الّتي بدأوا بتأليفها و في مختلف العلوم، كعلم المثلثات و الهندسة العمليّة. أو بعبارة أُخرىٰ كان أبو الوفاء البوزجاني قد ألف كتابه المعروف الأعمال الهندسيّة في تلك الفترة الزمنيّة وكذا أبوريحان البيروني قد الف كتابه القانون المسعودي في علم النجوم، و الكوهي و غيره من العلماء قد ألّفوا الآثار الخالدة الّتي ساعدت في تقدم علوم الرياضيات و الفلك في تلك الفترة أيضاً.

---

۷. الكرجي، انباط المياه الخفيّة، الترجمة الفارسيّة بقلم حسين خديو جم طهران، ص ۱.

القسم الثالث:

أسباب انحطاط العلوم الاسلاميّة:

النقطة الهامّة الّتي تجلب اليها الأنظار في عصر آل بويه (أي القرن العاشر الميلادي) هَي أَنَّ أقطار الامبرا طوريّة الاسلاميّة في شرق آسيا و قسماً من أفريقيا تُدار بيد رجالٍ من ابناء الشيعة.

وكما أشرنا فيما تقدم أَنَّ أغلب القطر الايراني وكُلّ بلاد الرافدين كانت بيد رجالٍ من آل بويه و هم من الشيعة الاثنىٰ عشريّة. كما حكم مصر و مراكش و تونس رجالٌ من الفاطميين و هم من ابناء فاطمة الزهراء (ع) و ينتمون الىٰ المذهب الشيعي الاسماعيلي و هم خصوم خلفاء بني العباس، و من أجل مناوأة الحكم العباسي عقائديّاً شيَّدوا جامع الأزهر و مدرسته المعروفة و اجتهدوا في اشاعة علم الفلسفة، وكان ابن الهيثم عالم الرياضيات و الكيمياء المعروف و مؤلف كتاب المناظر يعمل دائباً في مجال البحث العلمي تحت همايةٍ و مساعدة الفاطميين.

و إذا خرجنا من مدار آل بويه و الفاطميين يشخص أمامنا و علىٰ ارض دمشق الشام و حلب و ميافارقين آل حمدان و هم من الشعية المخلصين و أخصّ بالذكر منهم سيف الدولة الحمداني (علي بن عبدالله المتوفىٰ سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) الّذي قيل فيه: «ما اجتمع بباب أحد من الملوك ما أجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم و نجوم الدهر».

و خلاصة القول أَنَّ المذهب الغالب علىٰ الامبراطورية الاسلامية في ذلك الزمن هو مذهب الشيعة الاماميّة، و بما أنَّ المذهب الشيعي ترك باب الاجتهاد مفتوحاً علىٰ مصراعيه، بالاضافة الىٰ أَنَّهُ في مسألة «الجبر و الإختيار» التزم جانب الأختيار للإنسان في مقابل اعماله، دون أن يتجاوز الحدود.

و ممالاشكَّ فيه أَنَّ التمسّكَ بهذه الأفكار يكون بحد ذاته نشاطاً و حركة علميّة و فلسفيّة فعّالة. وكما ذكرنا فيما تقدّم أنَّ آل بويه قد أَسَّسوا صرحاً لحرية الفكر و المبادئ، و قاعدة راسخة للاقتصاد الزاهر، و استقراراً سياسياً قويّاً.

و قد تجمعت كلُّ تلك العوامل يساند بعضها بعضاً و كوَّنت تلك النهضة الإسلاميّة العارمة.

و عندما خسرَ آل بويه الحرب أمام خصومهم السلجوقيين أعادَ مذهب السُنَّة سُلطته علىٰ أقطار الامبرا طورية الاسلاميّة، و كُلّنا يعرف أنَّ مذهب السُنّة يُرَجّحُ العلوم النقليّة علىٰ العلوم العقليّة كما يعتقدُ أغلب أهل السُنّة بالجبر دون الاختيار.

إنَّ الإعتقاد المذهبي قد ترك أثره في المجتمع، حيث بدأ الجهاد و الكفاح الشديد ضد الفلسفة في هذا العصر، و كان زعيم هذه الحركة أبا حامد محمد الغزاليّ، و كان الغزاليُّ ضليعاً بالفلسفة أضافة علىٰ تقدّمه بعلوم الفقه و الكلام.

و قد خاض الغزالي بحر العلوم الفلسفية لا طلباً لها، و انّما تهيُّؤاً لمكافحتها. طبيعيّاً لوكان الغزالي يكتفي بمناظرة الفلاسفة، و الإنتقاد البناء، و محاربة السيطرة اليونانيّة علىٰ الفلسفة الاسلاميّة، و التقليد الأعمىٰ لافكار ارسطو الفلسفيّة، فلا يشكّلُ هذا أيّ مُشكلة، و من المحتمل أنْ يفتح الانتقادُ البناءُ طريقاً جديداً للبحث و الوصول الىٰ الطريق اللاحب، كالطريق الّذي أوجده علماء الغرب في عصر نهضة تقدّم العلوم و الفنون.

و لكنّ أبا حامد العزالي لمْ يقترح طريقاً بديلاً نُصَحّحُ به طريق الفلسفة المتّبع آن ذاك فحسب بل أخذ موضعاً لصالح التصوف و العرفان. و بما أنّهُ كان روحانياً و عالماً متألّقاً فقد ترك وقعاً كبيراً علىٰ الأفكار السائدة في زمانه، حيث انخفض معدل الاقبال علىٰ الفلسفة، وارتفع معدل الاقبال علىٰ التصوف و العرفان منذ ذلك الزمن.

و لم يكن الغزالي قد خفض بهاء و تلألؤ الفلسفة فحسب بل وجّه ضربة واسعة للعلوم العقليّة كالرياضيّات.

مثلاً أشار في كتابه فاتحة العلوم الىٰ أنَّ النظر في علم أقليدس و المجسطي و دقائق الحساب و الهندسة و الرياضيات يؤدي الىٰ يقظة فكريّة و طاقة صادرة من علوم الأوائل، و لكن خلف هذه العلوم تكمن مذاهبٌ فاسقة متهتّكة.[۸]

---

۸. حنا الفاخوري. خليل الجر، تاريخ الفلسفة في العالم الاسلامي، الترجمة الفارسيّة بقلم عبدالمحمد آيتي، طهران، انتشارات طوس، ۱۳۶۹ هـ ش، ص ۳۵۰.

فى ذلک الزمن ظهرت حركة تُعادي و تُمقت الفلاسفة و علماء الرياضيات و رجال العلوم الأُخرىٰ تحت شعار احياء الدين، و في ذلک الزمن أَسَّسَ ملکٌ شاه السلجوقيٌ (و بترغيب من وزيره نظام الملک) المدارسَ النظاميةَ لتعليم العلوم الاسلاميّة و الآداب العربيّة. و بما أَنَّ نظام الملک من المتزمّتين للمذهب السُنّي لذا كان الدافع لهذا العمل الثقافي هو مناضلة و مكافحة و مجاهدة الأفكار و المبادئ الاسماعيليّة و المذاهب غير السُنيّة. فُتل نظام الملک بيد الاسماعيلية نتيجةَ تزمُّتِهِ و سادَت الفوضىٰ و عمَّ القلقُ و الفزعُ المجتمعَ الاسلاميَّ.

و استمرت المخاصمة و المنازعة و المجادلة بين السلجوقيين و الاسماعيليّة علىٰ أشد مايكون، وكانت النتيجة الطبيعة لهذه المنازعات هي سيادة الفوضىٰ في المجتمع الاسلامي ناهيک عن الفسق و الفجور و الفساد المسيطر علىٰ دواوين حكومة السلجوقيين و خصوصاً حاشية السلطان «سنجر» و ولاته.

كُلُّ هذه العوامل أجتمعت في آنٍ واحد وأدّات الىٰ استياءٍ شعبيّ لا سابقة لهُ، و أدّىٰ هذا الاستياء بالغزالي أن يدوّن رسالة موجّهة الىٰ أحد أمراء «سنجر» ذكرفيها: «لقد عيل صبرالناس و زهقت النفوس»[٩]

بديهيٌ أنَّ هذه الفوضىٰ السياسيّة و الفقر السائد، و الركود الاقتصادي، و سلب حريّة البيان، جعلت أمر التدريس و الدراسة في خبركان. و لهذا نرىٰ عدد علماء العصر السلجوقي لايتجاوز تعداد أصابع اليد، وكان عمرُ الخيام العالم الوحيد المشهور في ذلک العصر، و قد استطاع الخيام السير في طريق العلم رغم المعوّقات و المشاكل الّتي جعلت أمر تحصيل العلوم أشبه بالأمر المستحيل. و قد دوّن الخيام تَذَمُّرَهُ و شكواهُ في مُقدّمة كتابه الجبر و المقابلة، و قالَ: «نحن أُسراءُ زماننا هذا، عدد العلماء نزير، و رغم قلّتهم فَهُمّ مُبتلون بألف محنةٍ و ألم و حزنٍ و عذاب و مشقّة، يتحيّنون الفرص كي يُدونوا أبحاثهم و علومهم من أجل الحفاظ علىٰ العلم، و اشباهُ العلماء في زماننا هذا يمنحون الحقَّ مظهرَ الباطل، و تظاهرهم بمظهر العلماء قد

٩. الغزالي، المكاتيب، باعتناء عباس اقبال آشتياني، طهران، ١٣٣٣ هـ ش، ص ٥٩.

تجاوزَ الحدَّ، و إنْ علموا شيئاً فيتّخذوه وسيلةً لتحقيق مآربهم الدنيئة، و إن رأوا باحثاً عن حقيقة أو رافعاً راية حقٍّ، أو داعياً الىٰ ترک الكذب و التظاهر و الحيلة و المكر، يهزأُوا منه و يحتقروهُ ويستهينوا به، و علىٰ أيّ حالٍ فانَّ اللّهَ ناصرٌ من نصرهُ و هو مأوىٰ و مثوىٰ عباده الصالحين...»[۱۰]

و منذ ذلک الزمن غيّرت الأيامُ وجهة سيرها و تركت عالمَنا الاسلامي و توجّهت نحو أُوروبا و هناک سلكت طريق النمو والازدهار، ولايخفىٰ أنَّ ما توصل اليه العلمُ في أمريكا و أُوروبا هذا اليوم هو امتداد للحركة العلميّة القادمة من الشرق في غارب الأيام.

النتيجة:

المُستنتجُ من هذا البحث هو إذا رغبنا في العودة الىٰ العصر الذهبي، عصر العلم و الحضارة و التمدن و الرقيّ و كما كُنّا عليه في عصر آل بويه فما علينا سوىٰ اعداد العوامل اللازمة لذلک يعني: ايجاد حالة اقتصاديّة فعّالة زاهرة؛ منح الحريّات الفكريّة للعلماء كي يُظهروا ما في سريرتهم؛ و تأمين الاستقرار و الثبات السياسي.

نعم كان المسلمون في العصر الذهبي أبطالَ الساحةِ بدون منازع فهم سادة العلم و الحضارة، أمّا في عصرنا الراهن فقد وقف الغرب بحضارته و تمدُّنه مقابل حركة التقدم الاسلامي، و لهُ دور فاعل في تدمير افكار المسلمين و ابعادها عن جادّة الصواب.

كما أنَّ أغلبَ المثقَّفِيْنَ يعلمون أنَّ الفيلسوف الفرنسي «آرنست رنان» كان في القرن التاسع عشر قد أعلَن دِعائيّاً أنَّ الشرقيّين بأجمعهم لا يتّصفون بروح التدقيق و الفلسفة.

وكان «آرنست» يعتقد أنَّ العلم و الفلسفة و ليد العقل التحليلي المنطقي المتمثّل في العنصر و العرق الأُوروبي و تمادىٰ في غيّه هذا حتّىٰ إدّعىٰ كون العلوم الاسلامية

۱۰. غلام‌حسين مصاحب، الحكيم عمرالخيام، طهران، ۱۳۳۹ هـ ش، ص ۱۶۰.

السائدة في القرون الوسطىٰ مرتبطة باليونان يعني أنَّ المسلمين لا علوم لهم سوىٰ نقل العلوم اليونانيّة إلىٰ العربيّة.

و ممّا يؤسف له أنّ العنصريّين الفرنسيّين قد أشاعوا هذا الرأي الخاطئ الغادر في دول أُوروبا.

أمّا الغربيّون جميعاً فهم ينظرون الىٰ النتاج العلمي الصادر عن غير الأوروبين نظرة تحقير و ازدراء، و يرغبون الإيحاء الىٰ غيرهم بأنّهم عاجزون ذاتيّاً عن التفكّر العلمي المنطقي، و إنْ رُزِق أحدُهم الرويّةَ و التبصرَ فانَّ الدين و التقاليد سيكونان عائقاً رئيسيّاً أمام ما يصبو اليه و يرغب تنفيذه.

هذا بالاضافة الىٰ أنَّ مجموعة كبيرة من ابناء الشرق و من المسلمين يجهلون المكانة العلميّة و الحضاريّة الّتي وصلَ اليها أجدادهم، لذا نراهم قد سقطوا في شباكِ المدينة الغربيّة، و تاهوا في مسالك التقدم العلمي الأُوروبي، و تصوّروا أَنْ لا طريقَ الىٰ التقدم العلمي و الحضاري إلّا التقليد الأعمىٰ للغرب و تقمُّص العادات و الأخلاق الأُوروبيّة.[١١]

مِنَ المؤكّدِ أَنَّ عُقدة الحقارة و فقدان الهويّة بلاءٌ نزل علىٰ رؤوس ابناء جيلنا و رجال أُمَّتنا و مما يؤسف لهُ أَنَّ هذا الأمرَ أحاق بالمسلمين في عصرنا الراهن، فالحرب الأهليّة في الجزائر كما وصفها عددٌ من الخبراء حرب فقدان الهويّة، فعدم فهم الاسلام و الحضارة الاسلاميّة من جانبٍ، و عقدة الإحساس بالحقارة مقابل الحضارة الغربيّة من طرف آخر؛ جعلا نار الحرب تبيدُ ابناء شعب البلد الواحد.

أمّا نحن ابناء الأُمّة الإيرانية فيجب علينا قبل أنْ نُصاب ببليّة فقدان الهويّة أن نُقيم جسراً عظيماً يربط ماضينا بحاضرنا كي يطّلع شبابنا و فتوّتنا علىٰ حضارة و علوم آبائنا، و ذلك لأنّهم في حِلٍّ عن ثقافة و حضارة أُمّتهم، و مخافة أَنْ تملأَ هذا الفراغ الثقافة و العادات الغربيّة و تكون النتيجة سقوط الشباب في هذا الشَّرَاك ولات ساعة ندم.

---

١١. قول تقي‌زادة المشهور في هذا المضمار يؤيد ما نرنو اليه: يجب أن تكون ايران متفرنجةً ظاهراً و باطناً و جسماً و روحاً (تاريخ ادبيات ايران لادوارد براون، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١).

و بموازات تشييد جسر الوصال بين الحاضر و الماضي و تهيئة رصيدٍ ثقافيّ واسعٍ يجب بذل الجهود الجبّارة والسعي المتواصل و العزم الراسخ في ارساء مقوّمات النهضة العلميّة و التحول الثقافي المرتقب من أجل وطن مُستقلّ و شعب سعيد.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی